

كما جاء، ويخلفه مَلِكٌ له اسمٌ نبِيٌّ، ووجهٌ وَضِيٌّ، تُفْتَحُ عليه بلاد لم يسلكها بدوي، ولم تطأها قدمٌ عربي، يا سليمانَ بن داود! ارفع الغطاء عن المائدة للضيفان، إِنَّ للمأدبة موعدًا قد حان!

وصمت الراهب برهة، وأطرق، ومال مسلمة على أذن رفيقه يُسرُّ إليه، ثم رفع الراهب رأسه يقول: وصاحبُ بالجنب يَنْشُدُ ضالَّةً، والضالة تَنْشُدُ ناشدَهَا، والباب بين الناشد والمنشود عليه قُفْلٌ وِرْتَاجٌ، وسِتْرٌ من ديباج ... أَيُّهَا الصبي، أَيَّتُهَا الجارية، إِنَّ لكما وراء هذا الباب غُموماً وَخُتُولَةً؛ اختلط الدم بالدم، وتَدَسَّسَ العِرْقُ إلى العِرْقِ،^{٢٧} ويك لو انكشف المخبوء وانتهك الستر وأُزِيح النُّقَابُ، لقد نذرتَ نذرًا ونذرتَ المقاديرُ نذرًا، فأوفِ بنذكرك، أو تجاوز عن ثأرك، فستبلغ المقادير غايتها برغمك، ويشهد الأمير ضاحِكُ السنِّ عاقبة أمره وأمرك، فيحذب^{٢٨} على الوليد، ويترحمُ على الشهيد، ويصلُ رَجَمَ القريب والبعيد!

وتفصّد جبينُ الشيخ عَرَقًا^{٢٩} كأنما كان يَمْتَحُ على رأسٍ برّ،^{٣٠} ثم تنفّس نفسًا عميقًا كأنما خرج من جُبٍّ، وراح يُقَلِّبُ عينيه بين الأمير وصاحبه صامتًا، والأمير وصاحبه يتبادلان نظراتٍ لا تكاد تُفصّح عن معنى.

وقال الأمير لصاحبه وقد أخذَا طريقهما إلى المدينة: هل فهمتَ مما وصف الراهب شيئًا يا أبا عُتَيْبَةَ؟

- قليلاً يا مولاي، وغاب عني الكثير!
- أفْتَدِرِي ما المائتان والمائتان والثلاثمائة؟!
- أحسبه يعني الذين يُستشهدون منّا قبل أن تدين القُسطنطينية بالفتح.
- أكذلك تزعم؟
- وماذا تكون هذه السبعمائة إلا ذلك!

^{٢٧} اختلط الدم بالدم والنسب بالنسب.

^{٢٨} يحنو.

^{٢٩} تفصّد: تقاطر عرقه.

^{٣٠} يمتح: يرفع الماء بالدلو من البرّ.